عبد الله كنُّون ونقده للمستشرقين

الباحث
حر حامد بندر
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية
Hurh.bandar@uokufa.edu.iq

Abdullah Kannoun And his Criticism of the Orientalists

Researcher
Hur hamed bandar
University of Kufa - College of Basic Education

الملخص:-

أسهم الأستاذ عبد الله كنون إسهامات جليلة في مجالات الفكر، ومن بين هذه الإسهامات نقده للمستشرقين، وقد سار في مشروعه هذا على نهج مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني ومن بعده الأستاذ محمد عبده في صورتها الإصلاحية بالمغرب العربي، التي كان مسعاها نحو بناء فكر إصلاحي جديد وفق متطلبات العصر والابتعاد عن الكلاسيكية، فكانت عباراته النقدية تمتاز بالتعددية: مرة تمتاز بالأدب الغفير؛ فلا يتجرأ بالألفاظ الأقوال القبيحة على فردٍ ما، كذلك في أقصى مراحل العنف إذ يلتزم الخلق والحيطة في النطق بالألفاظ. وأخرى كان يشتد بعباراته لرد تزييف أقوال أرباب المستشرقين. كما أنه قد حتى أبناء مدرسته ومذهبه ممن وقف مع المستشرقين وآزرهم في أفارهم، فيحاول هذا البحث الكشف عن ذلك الجانب النقدي من شخصية كنون من خلال مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، عبدالله كنون، النقد، المناهج.

Abstract:-

P.Abdullah Kannoun made great contributions in the fields of thought, and among these contributions was his criticism of the Orientalists. In this project, he followed the approach of the school of Sayyid Jamal al-Din al-Afghani, and after him, P. Muhammad Abduh in its reformist image in the Arab Maghreb, whose endeavor was towards building a new reform thought according to The requirements of the era and moving away from classicism, so his critical expressions were characterized by pluralism: once characterized by abundant literature; He does not dare to say ugly words against an individual, as well as in the most extreme stages of violence, as he adheres to morals and caution in uttering words. In addition, the other was harsh with his phrases to respond and falsify the sayings of the masters of the Orientalists. He also had the sons of his school and sect who stood with the orientalists and supported them in his exile.

Keywords: Orientalism, Abdullah Kannun, criticism, methods.

المقدمة:

عرف فكرنا العربي والإسلامي على امتداد التاريخ جماعة من رجالات الفكر والإصلاح في كافة المناحي العلمية، ومن بين هؤلاء الرجال ممن حملوا على عاتقهم مسؤولية الكلمة الأستاذ عبد الله كنُون (ت:١٤١٠هـ /١٩٨٩م). وهو أحد من سعوا واجتهدوا في إبراز الفكر الإسلامي والدفاع عنه؛ لإثبات أنه وبمصادره الثابتة الراسخة الممثلة في القرآن الكريم والسنة المشرفة غير مناقض للعلم والعقل ولا مقيد للحريات التي تنشدها الإنسانية.

وسار الأستاذ كنُون في مشروعه العلمي الإصلاحي على دأب مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني (ت:١٣١٤هـ)، ومن بعده الأستاذ محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ) في صورتها الإصلاحية بالمغرب العربي؛ يحلل ويكتب ويشرح وينقد ويناضل.[١]

كما كان للعلامة المغربي تقي الدين الهلالي (ت:١٤٠٧هـ) عظيم الأثر في تكوينه الفكري. حتى أصبح الشيخ أحد أكبر روَّاد وقته في إرساء قواعد النهضة الأدبيَّة والثقافيَّة والعلميَّة والدينيَّة والتربويَّة منذ منتصف العشرينيات.[٢]

وقد كان له موقفه النقدي كأحد رجالات الفكر والإصلاح من منتوج الخطاب الاستشراقي، وتميزت كتاباته المتنوعة بتلك النزعة النقديَّة ذات الأركان المكتملة، من حيث: (العوامل، السمات، الدوفع، المصادر، التطبيقات).

إشكالية البحث: الهدف الذي يتغياه هذا البحث عرض ومناقشة منهج الأستاذ عبد الله كنُون النقدي وموقفه من منتوج الخطاب الاستشراقي، ويجيب هذا البحث على عدة تساؤلات، أبرزها:

١) ما هي الأصول الكبرى التي بنى عليها موقف الأستاذ كنُون من الخطاب الاستشراقي؟

٢) هل يعد موقف الأستاذ كنُون من الخطاب الاستشراقي امتداد للمدرسة الإصلاحية التي ترأسها الأفغاني وابن باديس؟

٣) إلى أي مدى كان الأستاذ كنُّون موفقا في نقده للخطاب الاستشراقي؟

٤) ما هي أبرز التطبيقات التي عوَّل عليها الأستاذ كنُّون في نقد الخطاب الاستشراقي؟

٥) هل كانت انتقادات الأستاذ كنُّون مقصورة على الغرب، أم طالت بعض أبناء جلدته من الشرق؟

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. الأستاذ عبد الله كنون نفسه؛ لم يكن من الشخصيات النمطية أو الأحادية في نقد آراء أرباب الخطاب الاستشراقي؛ فقد قبل بعض هذه الآراء تارة، ورفض وأدان وشجب بعضها تارة أخرى.

٢. الخطاب الاستشراقي نفسه؛ فلا يمكن غض الطرف عن هذه المدرسة الغربية وأثرها في حياتنا وأفكارنا وتوجهاتنا، وموقف رجال الفكر منها.

٣. انتماء عبد الله كنون لمدرسة الإصلاح التي ترأسها السيد جمال الدين الأفغاني ومن بعده تلميذه النجيب الأستاذ محمد عبده.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع، من حيث: أصول المنهج النقدي وتطبيقات ذلك المنهج أن نتبع المنهج الوصفي التحليلي المقارن؛ لعرض آراء الأستاذ كنون والعمل على تحليلها، لإبراز موقفه من الخطاب الاستشراقي.

كما كان من الضروري في الوقت نفسه مقارنة هذه الآراء -وقتما لزم الأمر- بروافده العلمية التي استقى منها أفكاره.

خطة البحث:

جاء هذا البحث الذي هو بعنوان: «عبد الله كنُّون ونقده للمستشرقين» في: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة: تضمنت الحديث عن مشروع الأستاذ عبد الله كنون رجالات الفكر والإصلاح، وإشكالية البحث، وأهميته وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: ناقش أصول المنهج النقدي عند عبد الله كنون. وتناول هذا المبحث، ما يلي: أولا: عوامل المنهج النقدي. ثانيا: سمات المنهج النقدي. ثالثا: دوافع المنهج النقدي. رابعا: مصادر المنهج النقدي.

المبحث الثاني: ناقش تطبيقات المنهج النقدي عند عبد الله كنُون. وتناول هذا المبحث: تعددية تطبيقات عبد الله كنُون في نقده للخطاب الاستشراقي، على النحو التالي: أولاً: موقف الرفض والرد. ثانياً: موقف الأخذ الناقد. ثالثاً: موقف النقد الذاتي. خاتمة: بأهم النتائج التي ارتضاها البحث.

المبحث الأول

أصول المنهج النقدي عند الأستاذ عبد الله كنُون

يشتمل هذا المبحث على عدة مسائل، أبرزها: العوامل التي أسهمت في تشكيل اتجاهه النقدي، وسمات ودوافع ومصادر منهجه النقدي، وذلك على النحو التالي:

أولاً: العوامل التي أسهمت في تشكيل اتجاهه النقدي

أسهمت عدة عوامل في تكوين اتجاه الأستاذ كنُون النقدي، منها: عصره الذي تكوَّن فيه وتقوى عوده فكريا؛ حيث عج زمنه بالصراعات الفكرية والسياسية، ومن شأن هذا الجو المشحون بالتفاعلات أن يولد حالة من النقد ويوقظ الهمم ويشحذ العزائم.(٣)

ينضاف إلى ذلك بيئته الأسرية والتي بدورها شكَّلت ملكاته نحو النقد والتمحيص وعدم التسليم بالمتاح؛ «فأسرته عريقة النسب والعلم والفضل اشتهرت بعلمائها الأعلام في جامع القرويين بفاس، وأسهمت بحظ وافر في نهضة المغرب الحديث على أكثر من صعيد».(٤)

وما من شك أن دراسة الأستاذ كنُون للتوحيد والفقه واللغة والبلاغة والتاريخ فتحت آفاق تفكيره(٥)، ومكنته من إعمال عقله فيما يدور حوله وما يقرأه، مما هيأ له بالضرورة نشوء النزعة النقدية ذات السمات والملامح والتأديات الواضحة في ذهنه.

ثانياً: سمات المنهج النقدي

للمفكر الناقد في توجهه النقدي عدة خصائص يتحلى بها اتجاهه، والتي وإن دلّت على

شيء لتدل على جدوى هذا الاتجاه النقدي، ومدى فاعليته، وبما تميز عن غيره.

والمتتبع لما سطره الأستاذ عبد الله كنُون من كتابات في شتى الميادين - التي كتب فيها- ليلحظ عدة سمات لاتجاهه النقدي، منها: الموضوعية، والجرأة في قول رأيه، والصراحة دون أن يخطب ود أحد، والإحاطة بالأفكار والمذاهب التي يتوجه إليها بالتفنيد والنقد، وكذلك الأدب الجم، وكذلك المرونة.

كما كانت عبارات الأستاذ النقدية فيها من التعددية الكثير: فتارة كانت تنماز بالأدب الجم؛ فلا يتجرأ بالألفاظ النابية ولا الأقوال المرزولة على أحد، وحتى في أقصى درجات العنف يلتزم الخلق والحيطة في الألفاظ. وتارة أخرى كان يشتد في عباراته لتزييف مقالات بعض أرباب الخطاب الاستشراقي.

وما هو جدير بالملاحظة أن كنون كان مؤمنا بحرية التعبير؛ وعادة ما عول الرأي والرأي الآخر، وأكد على أن هذه الحرية تشمل: حرية الكلام، والكتابة، والنشر دون تدخل من السلطة.(٦)

ونوَّه في الوقت نفسه على أن تكون هذه الحرية حرية مسؤولة؛ فقد ارتُكِب باسم الحرية -في رأيه- أفظع الجرائم، حين خولت لكل من هب ودب أن يقول ويفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء.(٧)

ثالثاً: دوافع المنهج النقدي

ممّا لا شك فيه أن أيةَ حركةٍ علميةٍ تنشأ عن بواعث ودوافع حقيقية؛ فلا تنطلق حركةٌ علميةٌ حقَّةٌ مِن فراغٍ أو فرضيَّاتٍ ذهنيَّةٍ، وعادةً ما تكون هذه البواعث دينيةً، وسياسيةً، وشخصيةً ذاتية. ودوافع الأستاذ كنون يمكن أن تتلخصُ في النِّقاطِ التَّالية:

أ- دوافع دينية :أحد أهم الدوافع الحثيثة لديه، ويتلخص هذا الدافع الديني في تلك العاطفة القويَّة التي تمكَّنَتْ من شخصيَّة الأستاذ كنُون؛ فوجه ملكاته النقدية لمجابهة الأقلام المأجورة في نقد الدين؛ فكتب في سنة ١٩٤٦م كتابه (فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين)، وكتب سنة ١٩٨١م كتابه الشهير (الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن)، وغيرها.

ب- دوافع سياسية: وذلك في محاولاته للإصلاح السياسي جنبا إلى جنب مع الإصلاح الفكري؛ فكان يرى أن مقاومة الاستعمار لن تنجح إلا بتكوين جيل جديد متعلم، يعلم حقوق وطنه عليه.

لذلك كانت كتاباته أحد صور النبوغ المهدد لأركان الاستعمار في وقته، وعملا بهذه المواجهة وتفعيلا لها كان أول مشروع اشتغل عليه هو تأسيس مدرسة خاصة عام ١٩٣٦م، أطلق عليها اسم مدرسة (عبد الله كنون الخاصة).

ويبدو أن الأستاذ كنون يؤمن بأن أحد أهم طرق الإصلاح السياسي تبدأ من الناحية التثقيفية؛ فقد تُصلح الثقافة ما أفسدته دواليب السياسة. واتساقا مع هذه الرؤية شغل عدة أماكن ذات توجهات تربوية تثقيفية، على النحو التالي:

ترأس تحرير مجلة "لسان الدين"، وعمل مديرا لجريدة "الميثاق"، كما ساهم في تحرير مجلة "الإحياء". وقد حظي بعضوية مجموعة من الهيئات العلمية: كالمجمع العلمي بدمشق ١٩٥٦م، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦١م، ورابطة علماء المغرب، هيئة القدس العلمية ١٩٧٣م، ومجمع اللغة الأردني ١٩٧٨م، والمجمع العلمي العراقي ١٩٧٩م، وأكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٠م.

ج- دوافع ذاتية: نابعة من الأستاذ كنون نفسه؛ حيث النشوء العلمي الذي دفعه نحو إعمال العقل وتقليب النظر في المسائل والقضايا.

د- دوافع أدبية: فالأستاذ كنون من أرباب الأدب بالمغرب؛ وكان منهجه النقدي لأرباب الخطاب الاستشراقي ينطلق -فيما يبدو لنا- من تلك الدوافع الأدبية؛ غيرة عليه وعلى جدواه أصالته.(٨)

رابعاً: مصادر المنهج النقدي

الحق الذي لا مرية فيه أن المفكر لا ينطلق من فراغ أو من فرضيات ذهنية، بل من روافد علمية كثيرة، ولذلك كانت مصادر أو روافد الأستاذ كنُون متعددة وروافده العلمية متنوعة:

أ. فكانت أول هذه المصادرة ممثلة في: القرآن، والسنة. فلا تكاد تجد - مع استثناءات

قليلة- قضاياها التي يشتبك معها ويناقشها إلا ويستدل بالنقل عليها لتأييد أفكاره وتفنيد أفكار المقابلين له.[٩]

ب. كما كانت له مصادره الفكرية فيمن سبقوه زمنا؛ كالشيخ الأفغاني الذي قال فيه أنه «موقظ الشرق الإسلامي»[١٠]. والأستاذ محمد عبده واعتبارهم أحد أكبر رواد الإصلاح في زمانهم:

فأكد أن الأفغاني ما أطلق صيحته المدوية التي كانت ترمي إلى جمع كلمة المسلمين ودعم دولتهم التي تحفظ كيانهم إلا لشعوره بالخطر الذي هدد الوجود الإسلامي.[١١]

وخلفه الشيخ محمد عبده -وإن حوَّل الدعوة من اتجاهها السياسي إلى اتجاه علمي- فرد الشبه ودحض المفتريات، وكون عند المسلمين وعيا بالمشاكل التي تعترض حياتهم الدينية في العصر الحديث.[١٢]

ج. وقد أكد كنُّون على أصالة العلامة ابن باديس (ت:١٩٤٠م) وأشاد بآثاره وعده أحد مراجعه العليا التي نهل منها، يقول: «أشيد بآثار فقيد الشمال الإفريقي العلامة المجاهد المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان لها كثير من الأثر في توجيهي وإنارة الطريق أمامي إلى كثير من الخير».[١٣]

د. ينضاف إلى ذلك العديد من أدباء وقته؛ كالأستاذ الجليل السيد المدني بن الحسني، والقاضي عبد السلام غازي. فقد تلقى عنهم العلم وأخذ عنهم الأدب علما وسلوكا[١٤]

المبحث الثاني

تطبيقات المنهج النقدي عند الأستاذ عبد الله كنون

لم يكن موقف عبد الله كنُّون أحادي النظرة تجاه أرباب الخطاب الاستشراقي، بل امتاز بالتنوع المؤسس على الموضوعية الجمة؛ إذ تارة كان يرفض وينقد ويرد، وتارة أخرى يقبل ويرتضى، بل ويشيد ببعض منتوج المستشرقين، وذلك على النحو التالي:

أولاً: موقف الرفض والرد

أ. فقد تحفظ على أرباب الخطاب الاستشراقي فيما يخص رؤيتهم حول الاقتصاد الإسلامي، يقول: «ينكر بعض المستشرقين أن يكون للإسلام كشريعة نظام اقتصادي معروف، ويتواطأ وإياهم بعض تلاميذهم من الباحثين الشرقيين».[١٥]

وقد رفض هذا الرأي وذهب إلى أن الحق الذي لا مرية فيه أن «هذا الرأي خاطيء، ولا يخلو إما أن يكون ناتجا عن جهل وإما عن غرض».[١٦]

فالشريعة الإسلامية - في نظره- أعطت للاقتصاد أهمية خاصة ووضعت له أسسا وقوانين جعلت منه نظاما قائما بذاته، متميزاً بسمات العدل والإنصاف ورعاية المصلحة العامة التي تميز بها التشريع الإسلامي في كل باب.[١٧]

فدفاع الشيخ كنون عن الشريعة لم يكن «دفاع محام يريد أن يكسب القضية لأنه موكل بكسبها، ولكنه كان دفاع عالم يبحث عن الحقيقة بين ترهات كثيرة» ففتش عنها ووجدها وأكد عليها وعظم من شأنها ككل أحد من الغيورين على دينهم وأفكارهم وإيمانهم.[١٨]

ب. كما أدان وشجب بشدة ما ذهب إليه كاتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المستشرق «م.ر.رحماتوفRakhmatov» أن القرآن الكريم لا يمكن الاعتقاد به ورد عليه زعمه، لإيمانه أن «السكوت عن مثل هذه الأمور يعتبر عجزاً وضعفًا وتسليما بما ورد فيها من الانتقاد والطعن والتجريح في الإسلام».[١٩]

ولم يأل جهدًا في ذلك، فتتبع فصول هذا الكتيب -الذي ألفه رحماتوف- ورد عليه فصلا فصلا «من غير أن يكون في ذلك مس بجهة من الجهات، لأن الكلام مع الكلام».[٢٠]

ولذلك كان الرد عليه وتسفيه مقولاته بدون تجريح أو طعن في شخصيته «مما يعبر عن شجاعة أدبية وعن قدرة على التفوق في التحليل العلمي»[٢١]، ومقارعة الحجة بالحجة حتى أبان عوار كلامه وعدم جدواه.

ج. ينضاف إلى ذلك موقفه النقدي من حملات الغزو الفكري الأجنبي - بحسب تعبيره- الذي طغا على الحياة العامة في بلاد الإسلام فزيفها ولفها في ثياب الابتذال والاستلاب حتى أصبح المجتمع الإسلامي صورة مهزوزة من المجتمعات الغربية بما فيها من تدين مدخول ومادية ملحدة.[٢٢]

وقد كان الأستاذ كنُّون لا يتساهل في مثل هذا الموقف كيلا يوقع هذا التساهل فيما هو أخطر منه؛ «فالمبالغة في التسامح والتساهل ربما أدت إلى عكس المطلوب».[٢٣]

هذا، وقد كان من أكبر المعارك التي خاضها الأستاذ كانت ضد التغريب ومقاومته للأفكار المستوردة والدعاوى المنحرفة والمذاهب الزائغة الزائفة، التي سعت إلى طمس الإسلام وعرقلته وتشكيك المسلمين في عقيدتهم للسيطرة عليهم.[٢٤]

د. كما فند مزاعم المستشرق جولدتسيهر Goldziherحول النبوة وطعنه على أبي هريرة رضى الله عنه، وأبان تهافت كلامه وكلام من سايره من أبناء جلدتنا، وأنهم لم يكلفوا خاطرهم في البحث والنظر.[٢٥]

وممّا يسترعي الانتباه أن ملاحظات كنُّون حول منهجية وآراء بعض المستشرقين لم تكن تحت تأثير العصبية المذهبية؛ فالرضى والسخط والمدح والقدح كان تابعا للحقيقة العلمية في المقام الأول.

هـ. كما ركز على مزاعم المؤرخ غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux من أن «العقيدة الإسلامية هي أبرز أسباب تخلف المسلمين وركونهم إلى حياة البؤس والخمول»[٢٦]. فرد عليه قوله وعرض لجهود أستاذه محمد عبده في الرد على هذه الفرية تفصيلا.

وأكد كنُّون وهو في ختام الرد عليه أن «أي شاب أو مثقف خالي الذهن من الحقائق الباهرة التي تنطوي تحتها، لا تستهويه تلك التهم الباطلة، ولا يتزعزع إيمانه إن لم يؤيد بروح من التربية الدينية، ويتوفر على معلومات مماثلة تثبته بالقول الثابت».[٢٧]

ثانيا: موقف الأخذ الناقد

وفي هذا المقام لا يتردد الأستاذ كنُّون في أن يعطى لأرباب هذا الخطاب الاستشراقي حقهم فيما برعوا فيه؛ فيرى على سبيل الذكر:

أ. المستشرق الأسباني كوميس Gómez كانت له تعاليقه المفيدة على الترجمة الإسبانية لكتاب يوسف الثالث، وأن ما قاله من تعاليقه أفاده كثيراً في بحوثه عن ذات الرجل؛ ومن أجل ذلك وصفه بالأستاذ والمستشرق الأسباني الكبير[٢٨].

ب. وكذلك إشادته بالمستشرق الهولندي رينهارت دوزي REINHART DOZY وكتابه المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب؛ حيث يرى كنُون أن «هذا العمل كبير وشاق، وإن استنطاق المخطوطات والوثائق الرابدة في المكتبات العمومية لتأليف معجم كبير كهذا لا يقدر عليه إلا باحث صبور في مثل همة المستشرق دوزي»[٢٩].

ولكن في الوقت نفسه استدرك عليه بعض النقاط التي ارتأى أن ذكرها من باب «التعاون على تجلية الموضوع بما يجعله أكثر وضوحا»[٣٠]، وليس من باب رصد الخطأ وتتبعه لمجرد الحط من شأن الغير، فسجل ملاحظاته على كتاب الرجل بدون تجريح.

ج. كما استشهد بالمستشرق الهولندي جوينبول Theodor Willem Juynboll كاتب مادة الحديث في دائرة المعارف -وهو في معرض حديثه عن الحديث النبوي- وأبان إعجابه بالجهد الذي بذله المسلمون في التحري لصحة أحاديث نبيهم، على ما له -أي جوينبول- من أغلاط كثيرة في هذه المادة.[٣١]

د. وكذلك السويسري آدم مِتْز Adam Metz الذي وصفه كنون بالأستاذ، وأشاد بتنويهه على الدور العظيم الذي قام به علماء الحديث في تدوين السنة، ونقل عنه -أي عن مِتْز- عدة نقول تؤكد ذلك[٣٢]. ونقل عدة نقول من كتابه المسمى الحضارة الإسلامية.

هـ. يضاف إلى ذلك موافقته لبعض آراء الكاتب الفرنسي جورج دوهاميل Georges Duhamel فيرى أن مخاوف دوهاميل حول انعدام الكتب وكسادها وزهد الناس لها قد يؤدي إلى التقهقر والخمول والرجوع بالإنسانية المهذبة في حافر الجاهلية في مجموعه حق[٣٣]. وأن السينما والراديو والجرائد وغيرها من مستحدثات العصر نافست الكتاب وصرفت وجوه الناس عنه وحلت محله هو من الحق أيضا.[٣٤]

ولكن في الوقت نفسه أخذ كنُون بعض هذه الآراء على حذر، ولم يأخذها على عواهنها بدون تقييد لها؛ واتساقا مع ذلك أكد على أن التشاؤم لمستقبل الكتاب لا ينبغي أن يصل إلى هذا الحد، والراديو - مثلاً - وإن يكن صندوق الضوضاء كما يسميه دوهاميل فإنه يؤدي للإنسانية خدمات جلى في المكان الذي لا يقدر الكتاب أن يعمل شيئا؛ كتسلية

وتثقيف الشيوخ والعجزة اللذين ضعفت أعصابهم وأبصارهم وحالهم دون القراءة[٣٥].

ويرى الأستاذ كنُّون أن الكتاب سيبقى له أهله ومحبوه وأنصاره المخلصون، وهم الآن موجودون بالفعل، لا تستهويهم هذه المستحدثات، ولا تأخذ من وقتهم إلا ما فضل عن قراءتهم[٣٦].

و. وأشاد الأستاذ كنُّون بجمهرة من الباحثين، منهم: المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال Lévi-Provençal والمسيو ليفيMonsieur Levy، ومن قبلهم الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين وعدة طلاب من كلية الآداب في مراجعتهم وتحقيقهم لكتاب الذخيرة لابن بسام، حتى خرج من بين أيديهم محققا كما ينبغي، وجاء إخراجه الفني بديعا للغاية، وكذا في مقابلتهم لنسخه....[٣٧].

وتفعيلا لأداة الأخذ الناقد التي عودنا عليه الأستاذ كنُّون راح ناقدا، يقول: «نلاحظ أن التصحيح - أي تصحيح كتاب الذخيرة- لم يكن كاملا بحيث وقعت في الكتاب أخطاء لغوية وأدبية كان بودنا أن يكون سليما منها. ولولا أهمية القائمين على نشره لما اعرناها اهتماما ولكن الخطأ الصغير يستعظم من الكبير»[٣٨]. وأشار بعد ذلك إلى عدة مواضع لهذه الأخطاء.

وغير خافٍ أن يوم كتب الشيخ كنُّون هذه الانتقادات حول ذلك الخطاب الغربي وبخاصة حول دوزي كان المستشرقون -إن جاز لنا التعبير- مقدسين، «وكلامهم يؤخذ مأخذ الوحي، لأنهم كانوا يعرفون كيف يسبغون على أبحاثهم لباس العلم والبحث»[٣٩].

ثالثاً: موقف النقد الذاتي

لا يتردد الأستاذ كنون في أن ينقد بعض أبناء جلدته ممن انبهروا بالخطاب الغربي واستلبهم أفكاره المدخولة، بل ويأسف على مثل هؤلاء الشباب وكيف انطلت عليهم هذه الأفكار[٤٠].

وليس ذلك فحسب، بل هؤلاء الشباب المخدوع ألفوا كتبا تضرب على نغم جميع المذاهب المستوردة حتى ليخشى في يوم من الأيام أن تصبح الشيوعية والماركسية إسلاما صحيحا مؤيدا بالنصوص وأعمال رجالات السلف الصالح[٤١].

ومن أجل ذلك، جعل جل اهتماماته العلمية والأدبية والصحافية وسيلة للإصلاح والوقوف ضد التيارات الدخيلة على المجتمع التي من شأنها أن تهز كيان الأمة، وتعبث بكل مقوماتها الدينية والحضارية وتُضعف من بناء الشخصية ومكوناتها(٤٢).

كما أدان بشدة غفلتنا عن تراثنا واهتمام المستشرقين به؛ فيرى أن تراثنا القيم لم ينشر منه إلا القليل وغالبية ما نُشر كان بعناية المستشرقين الأجانب، «فما أضيع التراث الذي يكون اهتمام الأجنبي به أكثر من اهتمام أهله وذويه»(٤٣).

ويتجه وجه الرجل الغيور على تراثه وحضارته وهويته، ويأسف على أن «قلة من الأجانب دخلوا تراثنا العلمي ونخلوه، كانوا أكثر منا فهمًا له وتأثرًا به، فعرفونا بقيمة ابن خلدون وابن رشد وابن بطوطة والرازي وغيرهم، ممن لم نُقمْ لهم وزنًا إلا بعد الإطلاع على أعمالهم ودراساتهم»(٤٤).

ومن أجل ذلك كله دعا الشيخ كنُون إلى الاهتمام بتراثنا، كما دعا إلى الإصلاح والتجديد في شتى مناحي حياتنا.

وكان مفهوم الإصلاح عنده لا يختلف عن التجديد، فهما يتداخلان، وكل منهما يكمل الآخر، فلا إصلاح بدون تجديد ولا تجديد بدون إصلاح؛ فكل الدعاوى الإصلاحية في فكر كنون تعتمد على التجديد والتغيير لكن بشرط الحفاظ على الثابت(٤٥).

ففي الوقت الذي يؤكد فيه على غلط مثل هذه الآراء - ربما - يؤكد على أن الانجراف وراء هذه المزاعم ويدعم الزعم القائل أننا «في جميع خطواتنا إنما نترسَّمُ أوربا في حقها وباطلها»(٤٦).

هذا، وإن القارئ لمنتوج عبد الله كنون ليشعر بتجليات المحامي الكبير وهو يترافع عن قضية حق آمن بها وهالة ظلم المتهم فيها، ولكنك وأنت تشعر بحماس الخطاب تعترف في الوقت نفسه بقوة العالم، وقدرته على استخدام أدوات البحث(٤٧).

الخاتمة:

حظى الخطاب الاستشراقي بعناية كبرى من الباحثين، وجاء في طليعة هؤلاء الأستاذ عبد الله كنُون الذي طالع طروحاتهم واستوعبها وعمل على تفنيدها درسا وتحليلا للرد عليها.

ولم يكتف بذلك فحسب بل تتبع طروحات البعض ممن فتنوا بذلك الخطاب ووجه إليهم سهام نقده وعمل على بيان عوارها وعدم جدوى بعضها، كما اقترح - بنزعة تربوية - الحلول الناجعة لتلك الظاهرة التي ردت كل شيء للغرب كما لو كان الشرق أصابه العقم.

هذا، وقد توصل البحث لعدة نتائج، أبرزها:

١) كان الأستاذ عبد الله كنُّون من أصحاب النظريات النقدية مكتملة المعالم والأركان؛ فنظريته -بحسب ما عرض البحث - ذات سمات وأهداف ودوافع ومصادر، وتأديات.

٢) لم يقتصر نقد كنُّون للخطاب الاستشراقي في ميدان واحد؛ بل تطرق نقده لعدة ميادين "القرآن، السنة، التفسير، التاريخ، الأدب، وميدان تحقيق التراث، وما إلى ذلك".

٣) تميز منهج كنُّون النقدي بالموضوعية؛ ففي الوقت الذي يهيل التراب على رأس هذا الخطاب ويبين نقاط زيفه وعواره لم ينكر ما له من نقاط إيجابية محمودة، كما هو الحال في مدحه للمستشرق دوزي، وغيره.

٤) كانت دوافع كنُّون نحو النقد والتمحيص دينية في أساسها؛ ناجمة من تكوينه الديني، والبيئة الثرية التي تربى فيها فأورثته الغيرة على الدين والهوية.

٥) لم يخجل كنُّون من أن ينقد البعض من أبناء جلدته ممن انبهروا بالأطروحات الغربية عن البيئة الإسلامية واستسلامهم التام لها، بل تعامل معهم بكل جدية وحيادية في آن واحد.

هوامش البحث

(١)- انظر على سبيل الذكر اعتماده على هؤلاء الأعلام في الرد على أرباب الخطاب الاستشراقي في كتابه: جولات في الفكر الإسلامي، مطبعة الشويخ- تطوان ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ص٦٨، ص٧١، ص٧٨، وغيرها.

(٢)- انظر: عبد الله كنون، المقالات الصحفية، وزارة الثقافة والرياضة- الدوحة٢٠١٧م، ص٧.

(٣)- د. إبراهيم بن أحمد الوافي، عبد الله كنون العالم المصلح، المملكة المغربية- مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المغرب ط١/١٤٣٤هـ ٢٠١٣م، ص١٩-٢٠.

(٤)- المصدر نفسه، ص٢٢.

(٥)- اعبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: عبد الله كنون بين التكريم والتأبين، طنجة١٤١٢هـ ١٩٩١م، ص٢٦.

(٦)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٦١.

(٧)- المصدر نفسه، ص٦٢.

(٨)- وهذا لا ينافى -في الوقت نفسه- مع الرأي القائل بأن: كتابات عبد الله كنون في التاريخ الأدبي للمغرب لم تكن تخضع لمنهاج علمي دقيق، فلا ذكر للمصادر ولا استقصاء لها، ومن ثم فإنها وإن كانت ذات قيمة كبرى في الوقت الذي ظهرت فيه، وهنا أقصد النبوغ المغربي في الأدب العربي، فإنها فقدت الكثير من قيمتها العلمية نظرا إلى ظهور أبحاث جديدة، ومع ذلك يبقى لصاحبنا -كنون- فضل تعبيد الطريق، وكفاه ذلك فضلا؛ انظر: [عبد السلام شقور، دراسات حديثة، مكتبة الجامعة- طنجة، ط١/ ١٩٨١م، ص٩٧-١٠٣].

(٩)- وفى الوقت نفسه ينبغي أنْ ننبه أنَّ المُمارسات النَّقديّة وإنْ استعانَت في تفصيلِ قواعدها ببعضِ مُقرَّرات الجدلِ اليوناني، يبقى الأصلُ فيها هو الجدلُ القرآنيُّ؛ فلا يخفى على أحدٍ ما جاءَ به القرآن الكريمُ مِن أساليبَ ونماذجَ في المُحاورَةِ والاستدلالِ، وهي كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ؛ انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط٢/ ٢٠٠٠م، ص٢١].

(١٠)- عبد الله كنون، التعاشيب، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠١٥م، ص٨.

(١١)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٦٤.

(١٢)- المصدر نفسه، ص٦٤.

(١٣)- عبد الله كنون، واحة الفكر، معهد مولاى الحسن- تطوان، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م، ص١٨٩.

(١٤)- اعبد الله كنون، التعاشيب، ص٨-٩.

(١٥)- عبد الله كنون، الاقتصاد الإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ١٩٧٩م، س١٥ ع١٧٩، ص١٧.

(١٦)- المصدر نفسه، ص١٧.

(١٧)- المصدر نفسه، ص١٧.

(١٨)- عبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: التكريم والتأبين، ص٣٠.
(١٩)- عبد الله كنون، الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن، شركة مكة للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص٩.
(٢٠)- المصدر نفسه، ص١٠.
(٢١)- عبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: التكريم والتأبين، ص٣٠.
(٢٢)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٦٤.
(٢٣)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٧٢.
(٢٤)- د. إبراهيم الوافي، عبد الله كنون العالم المصلح، ص٥٧-٥٨.
(٢٥)- هشام صبحي حاتم، إسهامات الشيخ عبد الله كنون في الفكر الإسلامي المعاصر، (رسالة ماجستير غير منشورة ببغداد) الجامعة العراقية- كلية العلوم الإسلامية، قسم العقيدة والفكر الإسلامي، ١٤٤١هـ ٢٠٢٠م، ص١٥٠.
(٢٦)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٦٨.
(٢٧)- المصدر نفسه، ص٧١.
(٢٨)- عبد الله كنون، أنباء وآراء حول ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٦١، م٧ ج٢، ص١٥٢.
(٢٩)- عبد الله كنون، تعقيبات، مجلة المورد- وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٠م، م٣٤٩، ص٣٥٧.
(٣٠)- عبدالله كنون، تعقبات، ص٣٥٨.
(٣١)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٣٧.
(٣٢)- المصدر نفسه، ص٣٨.
(٣٣)- عبد الله كنون، واحة الفكر، ص١٩٠.
(٣٤)- المصدر نفسه، ص١٩٠-١٩١.
(٣٥)- عبدالله كنون، واحة الفكر، ص١٩٤.
(٣٦)- المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٣٧)- المصدر نفسه، ص١٦٣.
(٣٨)- عبدالله كنون، واحة الفكر، ص١٦٣.
(٣٩)- عبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: التكريم والتأبين، ص٣٠.
(٤٠)- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٨٠.
(٤١)- المصدر نفسه، ص٨٠.
(٤٢)- د. إبراهيم الوافي، عبد الله كنون العالم المصلح، ص٥٩.

(٤٣)- عبد الله كنون، نحن والتراث- ضمن كتاب المقالات الصحفية، ص١٦٩. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الحكم من الأحكام العامة التي تحتاج إلى تخصيص؛ فعلى الرغم من مغالاة بعض العرب في تقدير الجهد الذي بذله المستشرقون، وأسرف في ذلك إسرافا، حين رد كل فضل في نشر وتحقيق التراث العربي إلى المستشرقين وجعلنا نحن العرب في موقف المتلقي الحاكي فقط. إلا أن هذه الجهود في حد ذاتها محمودة رغم جملة الملاحظات المأخوذة على منهج بعضهم في النشر والتحقيق؛ قارن:[د. محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، ط١/١٤٠٥هـ ١٩٨٤م، ص٢٧٣].

(٤٤)- المصدر نفسه، ص١٧٠-١٧١.

(٤٥)- تكريم العلامة عبد الله كنون، ضمن كتاب: التكريم والتأبين، ص٢٣.

(٤٦)- الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص٨٧.

(٤٧)- عبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: التكريم والتأبين، ص٣١.

قائمة المصادر والمراجع

١- إبراهيم بن أحمد الوافي، عبد الله كنون العالم المصلح، المملكة المغربية- مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، المغرب ط١/١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

٢- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط٢/ ٢٠٠٠م، ص٢١.

٣- قارن:. محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، ط١/١٤٠٥هـ ١٩٨٤م، ص٢٧٣.

٤- عبد الله كنون الباحث الملتزم- ضمن كتاب: عبد الله كنون بين التكريم والتأبين، طنجة١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٢٦.

٥- عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص٦١.

٦- عبد الله كنون، التعاشيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥م، ص٨.

٧- عبد الله كنون، واحة الفكر، معهد مولاى الحسن،تطوان، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م، ص١٨٩.

٨- عبد الله كنون، المقالات الصحفية، وزارة الثقافة والرياضة- الدوحة٢٠١٧م

٩- عبد الله كنون، الاقتصاد الإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ١٩٧٩م، س١٥ ع١٧٩، ص١٧.

١٠- عبد الله كنون، الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن، شركة مكة للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١١- عبد الله كنون، أنباء وآراء حول ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة، مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٦١، م٧ ج٢، ص١٥٢.
١٢- عبد الله كنون، تعقيبات، مجلة المورد- وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٠م /ص٣٤٩، ص٣٥٧.

رسائل وأطاريح:

٤٧- هشام صبحي حاتم، إسهامات الشيخ عبد الله كنون في الفكر الإسلامي المعاصر، (رسالة ماجستير غير منشورة ببغداد) الجامعة العراقية- كلية العلوم الإسلامية، قسم العقيدة والفكر الإسلامي، ١٤٤١هـ ٢٠٢٠م.